ما بعد الطبيعة

الحياة

للسيد محمد حسن البقاعي

— ٢ —

إن الإنسان ليتساءل فيقول : ما هو أساس الحياة ؟ تُرى هل هو نموّ الحسّ وحركاته وألمه وعضويته ؟ فهذه المسألة لا يمكن الجواب عليها إلا بالاستعانة بالعلم والفلسفة . على أن البحث فى الحياة ليس إلا التفتيش عن الحى هل هو ناشىء عن مادة أو هل الحياة الموجودة فى الجسد مُحَصِّلةٌ لأمور مادية أم خاضعة لمبدأ روحى عقلى ؟

ولعمرى إن الغوص فى بحث الحياة وسبر غورها ليتطلب البحث فى النظريات التى وضعها الفلاسفة من القرون الأولى حتى عصرنا الحاضر . وهذه النظريات على نوعين :

(١) النظريات الآلية Mècanisme

(٢) النظريات الحركية Dynamisme

أما خلاصة ما يقوله واضعو النظريات الآلية فهي : إنه من الممكن تعليل الحياة بالخواص الموجودة فى كل نوع من أنواع المادة ، أى يمكن تعليل الحياة بالحركة التى تصحب المادة . فقد قال (فاندال) : « ليس تشكل نبات أو حيوان أو تبلور إلا حادثة ميكانيكية لا تختلف عن قضايا الميكانيك الاعتيادية إلا أن العناصر فيها بسيطة جزئية » على أن كيفية الحركة مركبة ، فهي تعلل كل شيء بالمادة ، مثال ذلك : تركيب الماء من (H^2o) ليس هو إلا تركيباً مادياً ويدعمون نظريتهم هذه بسلسلة من الأدلة الطبيعية

الدليل الأول : إننا نستطيع إرجاع كل شيء من مظاهر المادة إلى حركة ، فالحرارة والنور يرجعان إلى اهتزاز وحركات فَلِمَ لا نعتبر الحياة مثلها ونرجعها إلى الحركات ؟

الدليل الثانى : إن مبدأ (لافوازيه Lavoisier) المشهور ، والمعروف بمبدأ حصانة المادة وبقائها لخير دليل على أن الأجساد الحية لا يوجد فيها شيء غير المواد الكيميائية التى تنتج بتحليلها تحليلاً كيميائياً ، إذ أننا لو وَزَنّا المواد الحاصلة بعد التحليل الكيميائى ووزنا الجسم المحلل قبل ذلك لوجدنا هناك تعادلاً

الدليل الثالث : كلنا يعلم أن التركيب الكيميائى يعطى مُركباتٍ ذات خواص لا توجد فى العناصر المركبة ، فتركيب كلور الصوديوم (cl Na) من الكلور والصوديوم يكسب المركب خواص مغايرة لخواص كل من عنصريه (cl) ؛ (Na) فَلِمَ لا تكون الحياة مركباً ناشئاً من مركبات مختلفة ؟

الدليل الرابع : لقد سمحت لنا التجارب الحديثة بمشاهدة بعض المماثلات والمناسبات القريبة بين بعض صور الموجودات الحية وبين صور بعض الأجسام البللورية ؛ فمن هنا نرى أنه يمكن إيضاح الحياة ميكانيكياً مثلها

ولكن هذه الأدلة لم تسلم من الاعتراض ؛ فقد اعترض عليهم بعض الفلاسفة فقالوا : (إن العلماء حتى اليوم لم يستطيعوا أن يركبوا الحياة) غير أن هذا الاعتراض يستند إلى أساس أو هى من بيت العنكبوت . وهذا الأساس ليس إلا تلك التجربة التى قام بها (پاستور) وأثبت عدم إمكان التوالد العضوى . فاذا لم يوصلنا العلم حتى الآن إلى تركيب جسم حى فلا بد أننا فى المستقبل نستطيع ذلك . على أن كلام پاستور : (إن الحى لا يتولد إلا من الحى) لا يمكن أخذه كمبدأ أساسى مادام العلم فى ارتقاء وتقدم مستمرين ، وها هو (ليبنيز Léibniz) يقول : إن كل شيء فى العالم يحدث ميكانيكياً . ولكن يجب أن نرتقى إلى مبدأ أعلى ، وهو المبدأ الميتافيزيكى ليتجلى لنا إيضاح الميكانيكية نفسها : على أن فى الحياة نظاما واتساقا خاصا لا يمكن

تعليله فى الحياة الميكانيكية فقط ؛ مع أننا لا ننكر أن كثيراً من الحوادث الحيوية يمكن تعليلها بالحوادث الميكانيكية . فقد قال (كلود برنارد Claud. Bernard) : ليس تكوُّن الجسم الحيوى من مجموعات عناصر كيميائيه هو كل ما نمتاز به ، بل هو الحياة أى القوة الحيوية التى لا توجد فى الكيمياء ، كاتجاه أعضائنا كل منها إلى غاية كغاية القلب وغاية المعدة ... فنحن فى هذه النظرية فى عالم الافتراض ؛ لذلك نقول : إن كلاً من هاتين النظريتين : الميكانيكية والديناميكية تستطيع دحض الأخرى وتفويضها

ولقد اعترض (هنرى برغسون H. Bergson) على نظرية الميكانيكية فقال : الحياة كلها إبداعٌ فهى مبدعة : أى أن تيار الحيـاة يأتى دائماً بالجديد . فالحوادث الحيوية فيها عدم تنبؤ (Imprèvisibilité) ولا يمكننا أن نتنبأ بأن الأحفاد فيهم صفات الأجداد ، وهذا ما يدعونا إلى عدم إيضاح الحياة

وزيادة على ذلك فإن الحوادث الحيوية الموجودة فى الجنين لا يمكن إيضاحها بصورة ميكانيكية : فنرى أن الشبكة العينية عند ذوات الفقرات ناشئة عن اتساع القسم الدماغى فى الرشيم الحديث بينما هى عند النواعم مشتقة من الأدَمة أى من الخارج بصورة مباشرة لا بواسطة الدماغ . ومن هنا نرى أن العضو الواحد فى حيوانات مختلفة لا يتشكل من نفس العنصر . والسبب فى ذلك لا يمكن تعليله بالعناصر الميكانيكية فى الرشيم ولا بشروط الإقليم والبيئة الموجود فيها الرشيم . فنجدنا مضطرين إلى افتراض مبدأ مسيطر أى غاية واتجاه . وإذا اعترضنا على الميكانيكية والحركية هل نصل إلى شاطىء الصواب ؟ كلا ! فلا يسعنا لحل هذه المسألة إلا الرجوع إلى نظريات غير الحركية والآلية علنا نقرع باب الحقيقة ونلمسها بأناملنا العشر . فلنبدأ بذكر النظرية الحيوية (Vitalisme) فنقول : إن أصحاب هذه النظرية هم لروه (P. Leroux) وبارتس) وكافة أطباء مدرسة (مونبيليه) وهم يعتقدون أن الحياة لم تنشأ إلا عن مبدأ خاص لا روح ولا شىء آخر ، بل هو مبدأ حيوى وسط بين الروح والجسد ... وقد تتجلى للقارئ قيمة هذا التعليل بمجرد ذكره فهو بدلاً من أن يوصلنا إلى حل هذه المسألة ؛ أوجد لنا معضلة أخرى لذلك فان الحيويين مثل (روسن) و (كابانيس Cabanis) وغيرهما من مدرسة باريس غيروا رأيهم فقالوا : ليست الحيـاة ناشئة عن مبدأ مفارق للجسد والروح ؛ ولا عن خواص المادة . بل هى ناشئة عن خواص معينة حيوية من نوع ثابت معين موجود فى الجسد ، أى أن المادة فيها خاصة الحياة عدا خواصها المعروفـة . وإذا عَرَّجنا الآن على نظرية العضوية القائلة : (إن الحياة هى وجود الأعضاء فى الجسم على هذه الصورة فهذا الوضع هو الذى أكسبها خاصة الحياة) نجد أننا لم نزل فى غياهب جهل بحقيقة الحياة ؛ بل كدنا أن نرتبك أكثر مما كنا فيـه . إذن فلنبحث الآن فى النظرية النفسية (Psychologisme) وهى النظرية التى تقول : (النفس مبدأ الحياة الاساسى) . فان الحياة تفارق الجسد عند ما تفارقه النفس ، وهى مبدأ العقل أيضاً فإننا نجد علاقة صحيحة بين الحياة العاقلة والحياة المادية أى أن مبدأ العقل هو مبدأ الجسد . ويثبت أصحاب النظرية النفسية رأيهم هذا بوجود الوحدة فى الجسد بالرغم من هذه الكثرة ، فما أن فى النفس غاية واحدة فهى إذن المبدأ الأول للحياة

ولا يمكننا إيضاح هذه الوحدة وهذا التناسق إلا بهذه الغاية الموجهة ، ألا وهى النفس . على أننا لا نعرف بأية صورة تؤثر الروح في الجسد ؛ وهذا الأمر شغل كثيراً من علماء النفس وعلماء الاجتماع والفيسيولوجين ، ولم يستطيعوا التوصل إلى حل معقول . فنحن إذن لا نزال فى عالم الفرضيات ؛ أضف إلى ذلك ما يعرضه بعض الفلاسفة على أصحاب هذه النظرية من الأسئلة ، فقد قالوا : إذا كانت النفس لها تلك القدرة التى يسندونها إليها — أى هى التى تحمى الجسد — فلماذا تتركه يفسـد فيزول أو يمرض ؟ وكيف توضح الحوادث التى تحدث فى الجسد بعد مفارقة الروح له كأن يطول الظفر بعد الموت وينمو الشعر ؟ وماذا نقول إذا علمنا أن بعض البوليب التى تعيش فى المياه الحلوة إذا قطعت بصورة عرضية ، أى إذا شطرت شطرين ، يكون كل شطر منهما ذا حياة جديدة ويعيش ؟ ألم يقرروا أن النفس لا تنقسم ؟ إننا نجد هذه النظرية لا تخلو من الصعوبات أيضاً .

ولقد وضع (دارون وكروسى) نظرية دعيت بالنظرية الروحية الكثيرة العناصر الحيوية فتقول : (الحياة ناشئة عن الروح والجسد معاً أى عن عنصرين . فلا يعتبر الجسم مادة عاطلة لاحياة فيها ، بل هو مستعمرة لحجيرات كثيرة كل منها لها حياتها الخاصة ؛ والنفس توجد هذه الحياة الكثيرة العناصر وتوجهها